



يا لله ما لنا غيرك يا لله.. تهتف حناجر السوريين، مبتهلةً للقوة الإلهية كآخر ملجأ لهم، في حربهم الوجودية ضدّ نظامٍ ديكاتوريٍّ بربريٍّ من جهة، وضدّ منظومة الأخلاق النفعية التي تسودُ العالم من جهةٍ ثانيةٍ، شديدة التمركز حول المصلحة القيمةِ وحيدةٍ، ترسم من خلال دلالاتها وتجلياتها حدودٍ وإمكانيات التدخل والمساعدة الدولية.

اشتعلت الثورة السورية منذ عام تقريباً، مدفوعة بموجةٍ ثوريةٍ تحرريةٍ ألهبت المنطقة العربية، انطلاقاً من لهبِّ أضاء جسدأً بشرياً مكتوياً بنار القدر ضدّ الذلِّ والإهانة المتمعمدين للحياة في صورة الذات الإنسانية، المسمّاة اعتباطاً "بوعزيزي"، وامتدّ الحريق إلى المقهورين والمظلومين على سطح الكوكب الأزرق شديد الفراوة في الكون، فثاروا ضدّ الطغيان، ضدّ تجريدهم من حقوقهم في الوجود الكريم، وأسقطوا أنظمةً قامت فوقهم وضدّهم عشرات السنين، دأبت خلالها على سرقتهم وامتصاص النبض من عروقهم، والمتاجرة بهم كرقيقٍ وعبيدٍ. فسقط نظام ابن علي التونسي من زخمٍ وقوة المفاجئة تقريباً بالكامل، وتداعى نظام مبارك المصري، وضُحِّي برئيسه بعد أن تلقى ضرباتٍ شديدةٍ، أحرز خلالها المنتفضون حقوقاً منسيةً للبشر ومازالوا منتفضين حتى استردادها، رغم استعادة تحالف العسكر رجال الأعمال لأنفاسهم. وذهب الديكتاتور الليبي معمر القذافي كراكوز العرب ومُضحكهم هو ونظامه أدراج الريح في الصحراء، مع استعادة النظام العالمي لزمام المبادرة، من خلال توظيف الحرب لإسقاطه، بما يترتب عليه من خروجٍ من الباب ودخولٍ من النافذة للقوى العظمى. ثم كانت اليمن تجربةً جديدةً أديرت فيها المعركة مع الشعب التائر بمناوراتٍ ودهاءٍ شديدين، كدهاءٍ من خرج من ذلك اللهب العربي بحرق علي عبد الله صالح الجسيمة دون أن يموت، مع إبقاء النظام اليمني تقريباً مثلما كان، ضمن جراحاتٍ تجميليةٍ لجسد الرئيس المحروق ولنظامه. بنفس الفترة تقريباً اشتعلت النيران في معظم البلاد العربية، استدركها المغرب بتنازلاتٍ كبيرةٍ تمسُّ السلطة السياسية، والخليج بتنازلاتٍ ماديةٍ تمسُّ الثروة، إلا سورياً فكانت استثناءً.

الاستثناء السوري: ألهبت الثورات مخيلة الشعب السوري الرازح تحت ثقل سلطة الأسد ونظامه الأمني العسكري المتورم، الذي يحكم من خلال استدامة الفقر والفساد، منذ عشرات السنين، بني خلالها شبكة من العلاقات والمصالح تميّزت بها الديكتاتوريّات التي عاشت بعد الحرب العالمية الثانية في دهاليز الحرب الباردة، وصار للسلطة السورية موقعاً ومكانةً في

خريطة العالم، وإن تأثرت قليلاً بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية، فتراجعوا تكتيكياً وحاربت في الكويت ضدّ العراق الشقيق، مع التحالف الدولي ضمن الزعامة العالمية الجديدة للولايات المتحدة الأمريكية المنفردة بذاتها بقيادة العالم. ورأوغت السلطة السورية وتقربت عليناً وسرّاً من إسرائيل مراراً، وهي العدو الاستراتيجي لها، وحاولت امتصاص تلك الموجة المدّوّية من تغيير العلاقات الدولية، إلا أنها كانت قد جذّرت مصالحها في غير منطقةٍ من العالم العربي والإسلامي، وصارت لاعباً رئيسياً في المنطقة، تُوكّل إليه المهام القذرة بوصفه لاعباً جلّاً شديد القسوة والغباء.

إذا بقيت السلطة السورية في هرم الدولة واخترقتها نزولاً إلى ضمائر الناس وأفئدتهم، وكانت في الخارج تمارس المناورة مع الجميع في معارك الجميع ضدّ الجميع، فهي مع الاتحاد السوفيتي ضدّ أمريكا في فلسطين، ومع إسرائيل ضدّ الفلسطينيين في لبنان، ومع أمريكا ضدّ العراق في الكويت، ومع السعودية ضدّ مصر بعد كامب ديفيد، ومع حزب العمال ضدّ تركيا، ومع إيران ضدّ العراق، ومع حماس ضدّ فتح، ومع القوات ضدّ المقاومة اللبنانيّة، ومع حزب الله ضدّ إسرائيل، ومع إيران ضدّ الخليج، ومع الجميع ضدّ شعبها الشعب السوري، إذ أنها وفي مرحلة الأسد الأب قامت بتعرية المجتمع السوري، ونهبها وإفقاره عبر الدولة التي كانت المُشغل الأكبر للسوريين وربّ عملهم، في ما يسمى رأسمالية الدولة، وكمّمت الأفواه وحظرت السياسة والأحزاب، وأغلقت ميدان العمل العام أمام الناس، واستولت على النقابات والجيش، واعتقلت المعارضين وعذبّتهم وقتلّتهم، ودمرت مدنًا على سكانها، في حربها المفتوحة ضدّ الشعب، فسادت وعاثت فساداً. في عهد الأسد الابن استمر النهج نفسه، ولكن مع إيصال الناس إلى حدِّ الجوع وما بعده، ضمن سياسةٍ تتبع نصائح بنك النقد على هواها من دون اتفاقٍ مكتوب، أي أنها تُنفذ الشطر الليبرالي في الاقتصاد، من خلال بيع القطاع العام، وإلغاء دور الدولة ورعايتها في ميادين تنمية شديدة الأهمية والحساسية للشعب كالزراعة والصناعة، لصالح التركيز ودعم النشاطات الريعية كالبنوك والاستثمارات العقارية، كل ذلك دون إعادة هيكلة مؤسسات الدولة وإدخال الضوء إليها، عبر السماح لمنظمات غير حكومية أو أحزاب أو وسائل إعلام بالعمل، أي إبقاء مخالب الدولة الأمنية دون تشذيب، مع التجويع.

تشابك مصالح الدول والأنظمة وشهدت تعقيداتٍ جديّةٍ مع ترابط الأسواق وافتتاحها، وكان للسلطة السورية في السنوات العشر الأخيرة دوراً مهماً في فتح مجالاتها الحيوية أمام أسواق العالم، في مسعى لإرضاء الكثيرين بعد اغتيال الحريري وخروجها المخزي من لبنان، وتم ذلك على حساب السوق المحلية، فتلاشت الزراعة والصناعة السوريتان أمام التجارة والبضائع المستوردة، وتکدّس السوريون في المدن بعد إمحال الريف، وجاءوا جماعةً، بعد أن غرفت سوريا بالعاطلين عن العمل إثر الأزمة العالمية التي طالت الخليج العربي فتوقف السفر بترك السوري إليه. وتکدّست أسباب الثورة الاجتماعية وترآكمت واحتقنـت، وأذكـتها دائمـاً أجهـزة الأمـن السـورية كوسـائل إـذـالـة وإـهـانـة وـتـسـلـط عـلـى النـاس بـفـرـض الـأـتـاـوـات عـلـى أـعـمـالـهـمـ وـحـيـوـاتـهـمـ، وـحـرـمـانـهـمـ مـنـ أـدـنـىـ حـقـوقـ إـلـيـانـ المـتـاحـةـ عـرـبـ شـيـكـاتـ التـلـفـزـةـ فيـ غـيرـ مـكـانـ قـرـيبـ مـنـ الـعـالـمـ.

بدأت الثورة في منتصف آذار 2011م سلميةً وعفوّيةً وامتدت خلال أيام لتفطي كامل التراب الوطني، وفتحت السلطة كل أبواب الجحيم أمام الثوار، بمعدلات قتلٍ واعتقالٍ وتعذيبٍ فاقت حدود التصور من البربرية والهمجية، وهي تفعل ذلك عليناً مستعينةً بحلفائها الروس والإيرانيين، الذين لهم أوضاع مماثلة في القمع والاستهانة بحقوق الإنسان، لكنّهم اليوم بدؤوا يخوضون الحرب ضدّ الشعب السوري على الأرض، حيث حشر الدب الروسي نفسه في مكانٍ ضيقٍ جداً فيما يعتقد أنه لأغراض استعراضية انتخابية، خلفه انسحاب أمريكي فرنسي من الساحة لأغراضٍ انتخابيةٍ أيضاً، إذ أنّ الفرنسيين والأمريكيين يلجؤون إلى الداخل لإدارة عروض الانتخابات، في حين أنّ الروس وبعد إفلاسهم الداخلي وترشّح بوتين للمرة الرابعة لا يجد أمامه إلا العرض الخارجي لكسب شارعٍ بدأ يظهر تملّمه العلني إثر مظاهراتٍ عمّت روسيا احتجاجاً على تزوير نتائج الانتخابات التشريعية هناك منذ شهرين مما ينذر بوصول المد العربي إلى هناك. فقام بوتين باستخدام حق النقض مرتين بعد إخراج حاملة طائراته الوحيدة إلى المياه الإقليمية السورية لترسو على شاطئ طرطوس، كما فعلت من

قبله البوارج العسكرية الإيرانية، والتي بدورها تقاتل على الأرض من خلال مقاتلين بدأت تظهر صور المعتقلين منهم لدى الثوار السوريين.

هكذا أعلنت روسيا وإيران والصين علينا الحرب على الشعب السوري، في معركته لإسقاط نظام حكم متكبر شديد الطغيان، بفرض إقامة دولة تحترمهم كبشر، وتحقق لهم جزءاً من أحلامهم، وترك الغرب الشعب السوري الأعزل في معركته بحجة فبتو روسيا تارةً، ولأسباب انتخابية تارةً أخرى، وبسبب من أزمة مالية عالمية. لكن ما يجري فعلاً هو اتفاق ضمني عالمي على وقف الربيع العربي، ومنعه من التسلل إلى شعوب أخرى، وتهديد أنظمة تتشابه دائماً حين يتعلق الأمر بنهب الشعوب وسرقة أحلامهم، وإبقاءهم دوماً في حظائر تمنعهم من رؤية الحياة الحقيقية، خارج إطار السيطرة الرأسمالية. وليس بعيداً عن الذاكرة، كيف تركت راوندا تقاتل حتى سقطت مصرجاً بدمها مع مليون قتيل في منتصف تسعينيات القرن الماضي، ولا كيف ترك الفلسطينيون يموتون أمام عدسات كاميرات العالم وضميره الحي.

كم يبدو اليوم واضحاً وجلياً إمكانية تفاعل شعوب الأرض لكسر قيودها، وإلغاء حالة الوهم التي تحكمهم، في صورة دول وأحلاف تتبادل فيها أطقم إدارية موقع السلطة والثروة. كم يبدو السوريوناليوم عبر رقصهم وغنائهم في تشيع شهدائهم الذين قضوا تحت وطأة آلة الموت السلطوية أقرب إلى الفطرة الإنسانية من شعوب أخرى تحسدهم بخوف وترقب، كم يبدو السورياليوم مقاتلاً أسطورياً في ملحمة يدفع فيها من دمه كي لا تسقط الإنسانية.

المصدر: صباح سوريا

المصادر: